الأسطورة والدين عند ميرسيا إلياد

البحث عن الأصلي والمقلَد في أشكال القدسي

د. عبد الإله جفال* جامعة معسكر

الملخص

يعتبر ميرسيا إلياد من أبرز المفكرين اللذين قدموا مشاريع فكرية حول الجانب المقدس من حياة الإنسان، أما فكرة القدسي فهي ترتبط أساسا بمظهرين ساهم كل منهما وبشكل فعال في نحت أشكال الفكر البشري كالفلسفة والعلم ناهيك عن الفن والتاريخ؛ المقصود بالذكر هو الأسطورة والدين أو ما يصطلح عليه عادة بالقدسي سواء في شكله الأول الديني أو في شكله الثاني الميثولوجي، كل ذلك يجعل من موضوع القدسي عند ميرسيا إلياد مجالا خصبا للدراسة يستحق أن ينبري لأجله القلم الفلسفي؛ ودون موارية سنحاول من خلال هذه الدراسة المتواضعة استنطاق النصوص التي صاغها إلياد للتعبير عن أهم جوانب حياة الإنسان وأقدمها على الإطلاق وهو القدسي في شكليه الأسطوري والديني؛ أما إشكالية هذا المقال فقد تمحورت حول علاقة الأسطورة بالدين عند هذا المفكر، علاقة لا يمكن إدراكها سوى من خلال الفصل في تراتبية هذين المظهرين، هذه الإشكالية يمكن صياغتها على النحو الآتي: هل تعلم الإنسان سرد الأساطير من خلال تجربته الدينية؟ أم أن الأسطورة هي التي جعلت من الإنسان كائنا متدينا؟

résumé

Mircea Iliade est l'un des penseurs les plus importants qui ont fourni des projets intellectuels sur l'aspect sacré de la vie humaine, l'idée de divine sont essentiellement de deux phénomènes liés à chacun d'eux a contribué efficacement aux formes de sculpture de la pensée humaine comme la philosophie et de la science, et encore moins l'art et l'histoire, destiné mentionner est le mythe et la religion, ou ce qu'on appelle habituellement « le sacré » aussi bien dans son premier religieux ou sous la forme de la seconde mythologique, fait Mircea Iliade un champ fertile pour l'étude qui mérite d'être un sujet d'étude philosophique, le problème de cet article a mis l'accent sur le mythe lié à la religion chez Mircea Eliade, une relation ne peut être perçue que par le chapitre de la hiérarchie de ces deux phénomènes, ce problème peut être formulé comme suit: es que l'être humain a appris Listé les légendes à travers son expérience religieuse?

مقدمة:

يعتبر المنهج البنيوي مفتاح إدراك العلاقة بين الأسطورة والدين خاصة إذا أدركنا أن مرسيا إلياد قد استخدم البنيوية الرمزية التي تعتبر نقطة تقاطع بين أسلوبين بنيويين وظفهما إلياد لنحت علاقة الأسطوري بالديني، ويتعلق الأمر بالبنيوية كما أرادها فرديناند ديسوسير (F. désosseur 1857-1913) والبنيوية كما أرادها كلود ليفي شتراوس (C. Lévi-Strauss 1908- 2009)، والمقصود هو البنيوية وعلاقتها بالرمز والأنثروبولوجيا؛ نقول ذلك لأن البحث عن العلاقة بين الأسطورة والدين في المشروع الفكري الذي قدمه مرسيا إلياد هو أمر متعب للغاية، حتى أننا نكاد نجزم بعد قراءات عديدة لمدوناته أنه يتحاشى الفصل في موضوع العلاقة بين الأسطوري والديني، الأمر الذي لم نسلم به لسبب واحد وهو قيمة الموضوع بالنسبة للمشروع الفكري الذي يقدمه مرسيا إلياد، فمن غير الممكن أن يتجنب مرسيا إلياد الفصل في مثل هكذا علاقة علما أنها تمثل جزئية رئيسة لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفالها.

يتحدث مرسيا إلياد عن بنية الأسطورة ووظيفتها فيظهر موقفه من العلاقة التي تربط الأسطورة بالدين، وقد تجسد ذلك في النص الآتي: " تنطوي معايشة الأساطير إذا على خبرة دينية حقيقية، من حيث تميزها من الخبرة العادية التي نختبرها في حياتنا العادية"[1]، فمن متن هذا النص يبرز لدينا أن مرسيا إلياد يضمن الأسطوري الديني، بمعنى أن الأسطورة تتضمن تجربة دينية بالمعنى الحقيقي، أي أن الإنسان الذي نظم الأساطير إنما كان يجسد في الوقت نفسه تجربة دينية مكتملة (طقوس ومعتقدات)؛ لكن رغم ذلك لازلنا بحاجة إلى شواهد أخرى من نصوص مرسيا إلياد تبرز علاقة الأسطوري بالديني عند هذا المفكر.

لقد أثار أحد النصوص اهتمامنا في كتابات ميرسيا إلياد لأنه يتطرق لعلاقة الأسطوري بالديني من خلال التطرق لمفهوم الإنسان المتدين، أي أن هذا النص أخذ العلاقة في الاتجاه الآخر أي من الديني إلى الأسطوري، والنص متنه الآتي: " الإنسان الديني عنده أن الجوهر* يسبق الوجود، يصح هذا على إنسان

المجتمعات البدائية والشرقية، مثلما يصح على اليهودي والمسيحي والمسلم، لقد وصل الإنسان إلى ما هو عليه اليوم لأن سلسلة من الحوادث قد حدثت في الأصل، وهذه الحوادث ترويها الأساطير، وهي إذ تفعل ذلك فلكي تفسر له كيف تكوّن على هذا النحو، ولماذا، وعند الإنسان الديني إن الوجود الحقيقي الأصلي إنما يبدأ في اللحظة التي يطلع فيها على هذا التاريخ البدئي ويسلم بنتائجه، والتاريخ البدئي هو دائما تاريخ إلهي"[2].

وقبل التطرق بالتأويل لهذا النص وجب علينا أن نشير إلى أهميته وقيمته في الوقت نفسه، فهذا النص ينشئ علاقة بنيوية بين الأسطوري والديني بما يؤكد منطلق هذه الدراسة، كما أن مرسيا إلياد ومن خلال هذا النص يتجنب الحكم المباشر الذي يفصل في علاقة الأسطوري والديني ويلجأ إلى الرمزية على المستوى اللغوي للتعبير عن بنية المقدس (الأسطورة والدين)، لذلك سنستخدم التأويل كمنهج للكشف عن المعنى الذي تتستر عليه هذه الرمزية؛ فمن خلال النص يحاول مرسيا إلياد أن ينبه القارئ إلى أن علاقة الأسطوري بالديني التي يريد ضبطها تنطبق على كل النماذج والمنظومات الدينية والأسطورية مهما كان زمانها ومهما كان شكلها، فهي تنطبق على الإنسان "البدائي" كما تنطبق على الإنسان الحديث سواء كان يهوديا أو مسيحيا أو مسلما؛ فالإنسان يصبح متدينا إذا اطلع على التاريخ المقدس، أي التاريخ الإلهي الذي تتكفل الأسطورة بنقله إلى الإنسان لتفسر له حالته مع القدسي عن طريق كشف الأسباب والغايات الأمر الذي ينقل الإنسان من مرحلة الاطلاع على التاريخ المقدس إلى مرحلة التسليم بنتائجه (الإيمان)، معنى ذلك أن الأسطوري إذ يروي تاريخا مقدسا ينقل الإنسان من الجهل إلى المعرفة أي من حالة اللاتدين إلى حالة التدين، ولا يعني ذلك أن المرحلة الأسطورية سبقت مرحلة التدين ومهدت لها بقدر ما تعني أن الأسطورة هي الحد الفاصل بين الديني والدنيوي كباب الكنيسة الذي يفصل بين الشارع (المكان الدنيوي) والمعبد (المكان المقدس)، فالأسطورة هي الباب الذي إن فتحه الإنسان سيتمكن من الاتصال بالمقدس والدنيوي في الوقت نفسه، نقول ذلك لأن الأسطورة لا تنفصل عن الواقع بل إن جل الأساطير تقدم حلولا للإنسان فهي ترتبط بما يواجهه الإنسان في الواقع من

أزمات واستفهامات لا تحل إلا بالرجوع إن لم نقل الهروب إلى النموذج الإلهي المقدس.

نعتبر كل ما سبق مجرد أفكار استهلالية يمكن لها أن تعين القارئ على فهم ما هو آت، فعلاقة الأسطوري بالديني لا يمكن أن تفهم عند مرسيا إلياد إلا إذا أمسك القارئ بكلمات مفتاحية تسمح له باستنطاق نصوص هذا المفكر، وهذه الكلمات المفتاحية هي: البنيوية، الرمزية، الأنثروبولوجيا، العالمية؛ وعليه يحق لنا الآن أن نطرح سؤالا مفصليا حول علاقة الأسطوري بالديني عند مرسيا إلياد، فإن تمكنا من الإجابة عنه سيساعدنا ذلك على الوصول إلى المبتغى من هذه الدراسة بنجاح كبير؛ والسؤال مفاده الآتي: هل التدين هو الذي ألهم الإنسان لإبداع الأساطير التي استخدمها للتعبير عن قداسة الإلهي؟

1- وحي أولاني*

يريد مرسيا إلياد من خلال استخدامه لمفهوم "الوحي الأولاني" أن يعالج مسألة أصل الدين بردها إلى الوحي (oracle) فيكون المقدس ذو أصول دينية إلهية لا أسطورية إنسانية، ويلج إلياد إلى موضوع الوحي وأصل الدين من الباب الهرمسي، إذ تطرق إلى الأثر البالغ الذي أحدثته المتون الهرمسية** في فهم الأفلاطونية وفي التأسيس لعصر النهضة الإيطالية بالربط بين الفكر البشري عموما في مختلف تجلياته والوحي باعتباره معرفة منحها الله للإنسان؛ على هذا الأساس سيكون مصدر الدين وسائر أفكارنا إلهي تم بالوحي للإنسان.

انطلاقا من فكرة الوحي الأولاني يمكن القول أن التوحيد سابق لفكرة تعدد الآلهة باعتبار أن المبدأ في مسلمة الوحي الأولاني هو أحادية المصدر (الله)، ومعنى ذلك أن مرسيا إلياد يفسر مبدأ الوحي الأولاني بوضع الدين خارج التاريخ، فلا وجود لأديان بل هناك ديانة واحدة عالمية لا إقليمية ولا محلية[3]؛ تحيلنا فكرة الوحي الأولاني أيضا إلى مسألة بالغة الأهمية في المشروع الفكري لمرسيا إلياد وهي الأصول الشرقية للدين ردا على المسيحية الإقليمية التي غرستها كنائس القرون

الوسطى، فالهرمسية سبقت المسيحية وتنبأت بنبوة عيسى بن مريم[4] الأمر الذي يجعل المتون الهرمسية ذات مصداقية كبرى ويمكنها من أن تكون مصدرا للدين علما أن هرمس مصري الأصل يعكس ثقافة الشرق ويؤكد في الوقت نفسه تلاقح الثقافات من خلال تأثير الهرمسية حتى في الأفكار المسيحية فيما بعد، ويعتبر ذلك نقطة بالغة الأهمية بالنسبة لمرسيا إلياد رغم أنها تتعلق بالتفاصيل فقط، إذ كانت المتون الهرمسية عاملا رئيسا ساهم في النهضة التي عرفتها إيطاليا خاصة وأوروبا في شتى المجالات.

ينقلنا ما سبق إلى مسألة جوهرية تتضمنها فكرة الوحي الأولاني وهي رفض الفكرة العلمانية التي تعتبر أن الأسطورة هي أصل الدين، لكن المشكلة عند مرسيا إلياد أنه لم يقدم نصا صريحا يتبنى فيه فكرة الوحي الأولاني، فقد تطرق إلياد لهذه المسألة ببراعة فينومينولوجية منقطعة النظير إذ تمكن من تعليق أحكامه مجسدا أرقى الأطوار الفينومينولوجية لا كما نظر لها هوسرل بل كما أرادها هو أن تطبق.

تبقى مشكلة واحدة أمام مسألة الدين والوحي الأولاني، وهي مشكلة عويصة لا يمكن فهمها إلا بمقاربة تمكننا من كشف هذه المشكلة، والمقصود هنا بالمقاربة مماثلة المشكلة كما كان واقع الظاهرة الدينية في القديم، ففرضا لو سلمنا بأطروحة الوحي كمصدر للدين عند مرسيا إلياد وبالنظر إلى عمق التاريخ في هذه المسألة فسوف لن نتمكن من تقديم الأدلة التي من شأنها تبرير هذه الفرضية، والسبب أن أقدم تاريخ معلوم عن الإنسان هو التاريخ الباليوليتي الذي يقسم عادة إلى ثلاثة أقسام (الأدنى، الأوسط والأعلى) ويمكن تسمية هذه المرحلة بالقاع السحيق الذي لا يقدم آثارا كتابية تعرفه أو تبرز لنا ما كان عليه الإنسان (الأناسي)* في ذلك العصر (خاصة الأدنى)، والأمر يشمل أيضا الإنسان النياندرتالي أو ما يصطلح عليه بالإنسان العاقل النياندرتالي الذي عاش في العصر الباليوليتي الأوسط (homo sapian niandertalisis) والإنسان العاقل فيما بعد؛ فكل ما هو متوفر آثار صامتة تحتاج إلى تأويل أو إن صح القول قراءة تقف على الرمزية التي كانت تتضمنها التماثيل وطرق الدفن والرسوم على جداريات الكهوف وكل ذلك يبقي التجربة الدينية غير واضحة حسب مرسيا

إلياد[5]، وأما الدليل الكتابي المطلوب فسيتوفر فيما بعد لكن المشكلة هنا هي أن النص سيأخذ شكل الأسطورة (فني جمالي، شعري، حماسي، مقدس) وهذا ما حدث في الحضارة السومرية التي شهدت أولى النصوص الدينية حتى أن مرسيا إلياد عبر عن ذلك بالقول: "التاريخ يبدأ من سومر"[6]، ويتجسد كل ذلك في النص الآتي: " وإنها تتعلق بالوثائق الأولى المكتوبة والتي يعود أصلها للألف الثالثة، ولكن هذه الوثائق تعكس، بالتأكيد، عقائد دينية أكثر قدما"[7]؛ عندئذ لا يمكننا وضع حد فاصل بين الأسطورة والدين وتبقى فرضية الوحي الأولاني التي يقترحها مرسيا إلياد بدون أدلة تبررها.

يمكننا تقديم قراءة أخرى للفصل بين الأسطورة والدين بما يخدم فرضية الوحي الأولاني، وهذه القراءة سنتعامل فيها مع واقع الدين والكتابة كأثر لابد منه ناهيك عن الطابع الميثولوجي لتلك الكتابة؛ يفرض علينا كل ما سبق قبول فكرة أن الدين لا يمكنه أن يظهر للباحث إلا من خلال الأساطير، لكن ماذا لو أقرت الأساطير ذاتها بفرضية الوحي الأولاني؟ سيكون ذلك لامحالة دليلا يعتمد على مصداقية الأسطورة ليلتف حولها ويؤسس لفكرة الوحي الأولاني الذي يضع الدين قبل الأسطورة بأن يثبت مصدره الإلهي، يقول مرسيا إلياد في هذا الشأن: " من الممكن أن يقوم المرء بدراسة شيقة، يستعيد فيها تاريخ الأسطورة الدينية والثقافة المتعلقة ((بالوحي الهرمسي الأولاني))"[8] عندئذ تصبح الأسطورة تعني تاريخ المقدس باعتبار أن المقدس في الأصل ديني حصل عليه الإنسان بوحي إلهي أولاني.

واجهت فكرة الوحي الأولاني انتكاسة بعد رواجها الكبير وتأثيرها في مختلف أفكار النهضة الأوربية ما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر، والسبب هو فلسفات عديدة رفضت أطروحة الوحي الأولاني كالعمل الذي قام به إسحاق كازوبون (casaubon isaac) سنة 1614م والذي أثبت من خلاله أن المتون الهرمسية ليست وحيا حسب دراسة لغوية بحتة، بل هي مجرد نصوص كتبت ما بين القرنيين الثاني والثالث للتوفيق بين الهلينية والمسيحية، ناهيك عن الوضعية التي تؤمن بالمادة والطبيعة والوجودية التي تعتبر الإنسان خالقا وصانعا في حين

أن الوحي الأولاني يتضمن فكرة أن الإنسان عاجز والآلهة أو الله أوحى له ليساعده.

2- الأساطير الحية

يميز مرسيا إلياد بين الأساطير ولا يتعامل مع الكل بنفس الطريقة، فأساطير التكوين أو أساطير الدمار لا يمكن أن توضع على قدم المساواة مع أساطير أخرى تحكي عن سلوك معين أو عن كيفية خروج نوع من النبات إلى الوجود[9]، ضف إلى ذلك فإن الأساطير اليونانية لا توضع هي الأخرى على قدم المساواة مع الأساطير الشرقية القديمة باعتبار أن اليونانيين لا يمتلكون أسطورة واحدة لها علاقة بالدين، أي تتضمن طقسا أو معتقدا أو حتى متنا شعائريا؛ فالأساطير الحية عند مرسيا إلياد هي الأساطير التي تتعلق بأمر جلل يحدث في الوجود، وهي أساطير ترتبط بالدين لأنها كانت تعني الحقيقة لا الوهم والخيال الفني كما زعم ذلك اليونانيون من منطلق الفصل بين الميتوس واللوغوس؛ وقد سماها بالأساطير الحية لأنها لازالت ترافق الفكر البشري من خلال الدين، فهذا الأخير ضمن لها الاستمرارية كونها تفسر العديد من الطقوس والمعتقدات.

بعد تحديد معنى الأسطورة الحية عند مرسيا إلياد سنبحث الآن في هذه الأساطير عما يؤكد مصدرها الديني؛ وفي هذا السياق وجدنا نصا بالغ الأهمية يمكنه أن يساعدنا على تأكيد الأصول الدينية لمتون الأساطير، والنص متنه الآتي: " إن أسطورة النشأة الكونية تتيح لنا فهم الحياة الدينية عند الداياك*،كما تتيح لنا فهم ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعي، فالعالم عندهم هو حصيلة معركة مبدأين متقاطبين، وشجرة الحياة - التي هي تجسيد لهما بالذات- تفنى خلال هذه المعركة"[10]، وعن طريق التأويل يمكن لنا أن نحصل من متن هذا النص على معنى يفيدنا في فهم علاقة الأسطوري بالديني، فمرسيا إلياد يرى أن الأسطورة خاصة الكونية التي تتحدث عن التكوين تمتلك وظيفة هامة وأساسية تتمثل في شرح الحياة الدينية، ومنه نستنتج أن الديني هو الأصل وقد جاء الأسطوري ليشرح فقط محتوى الدين، وبمعنى آخر فإن الأسطورة هي أول خطاب ديني قام الإنسان بكتابته وهو يعبر عن فهم الإنسان للدين، ناهيك عن

أننا ومن خلال الأساطير يمكننا فهم الحياة الاجتماعية والاقتصادية للإنسان وحتى ما يتعلق بالفن والمعرفة والقيم إلى غير ذلك مما يخص الإنسان باعتباره كائنا متميزا وعاقلا.

تتميز الأساطير الحية أيضا بخاصية أخرى من شأنها أن تؤكد المصدر المشترك للفكر أو الخطاب الأسطوري، وهذه الخاصية هي تشابه الأساطير الحية في العديد من الأمور أهمها الموضوع وفكرته العامة، فرغم الفرق الكبير بين هذه الأساطير على المستوى التاريخي وعلى مستوى الظروف الاجتماعية والأنثروبولوجية التي ولدت في حضنها إلا أنها تشترك في العديد من المواضيع وفي أفكارها العامة التي تمثل محور الأسطورة؛ المقصود بذلك: (التكوين، الطوفان، الدمار، ستة أيام، العماء، الماء، السفينة...إلخ)، الأمر الذي يحتم على دارس الأساطير أن يطرح سؤالا بالغ الأهمية مفاده: ما سر التشابه الكبير القائم بين الأساطير الحية رغم الفارق الزمني الكبير بينها ورغم الفرق الاجتماعي والأنثروبولوجي بين المجتمعات التي أنتجتها؟

يشرح مرسيا إلياد موقفه من هذا التشابه عن طريق الاستعانة بنقد فكرة الثقافة المحلية وخاصة الأوربية، فمرسيا إلياد يعتقد جازما أنه لا توجد ثقافة أو حضارة مستقلة تمام الاستقلالية عن الثقافات أو الحضارات الأخرى، وفي ذلك محاكاة لأطروحة ليفي شتراوس البنيوية؛ أما تفصيل ذلك وبراهينه فنجدها في العديد من النصوص التي تؤسس كلها لفكرة تلاقح الثقافات ووحدة الحضارة البشرية التي ساهم فيها الإنسان البدائي بنفس القدر أو أكثر مقارنة بالإنسان الحديث، ساهم فيها الشرقي كما ساهم فيها الغربي، وكل ذلك من شأنه أن يبرر التشابه الكبير الموجود بين الأساطير الحية التي تروي أمرا جللا وتفسر ما يتعلق بالدين؛ يقول مرسيا إلياد: " هذا الكلام يفضي إلى القول إن حوار الغرب المباشر مع العالم الآسيوي والإفريقي والأوقيانوسي، يساعد الأوربيين على اكتشاف مواقف روحية يمكن اعتبارها بحق ذات قيمة، معترف بها عالميا، ولم تعد تلك المواقف معبرة عن صيغ إقليمية وعن إبداعات تتم في جانب محدود من تاريخ البشرية، إنما هي مواقف -إذا سمحنا لأنفسنا نقول- عالمية ومسكونية*"[11]، والمعنى الذي يمكننا أن نستشفه من متن هذا النص هو

أن تاريخ أوربا لا يمكن أن يكون منفصلا عن التاريخ الإنساني الذي بدأ منذ آلاف السنين، فلا مجال للبحث عن الأصول إلا بالعودة إلى الآخر الذي نشترك معه في التاريخ الذي يتضمن كل أشكال الحياة البشرية بما فيها الأساطير والأديان أي تجاربنا الروحية مع القدسي.

يطرق مرسيا إلياد باب حوار الحضارات لدخول موضوع وحدة الأديان، ونحن نعتبر أن هذه الجزئية في مشروعه الفكري هي التي ألهمت فراس السواح ليكتب لنا مؤلف "دين الإنسان" وهذا أمر سننا قشه فيما بعد، فموضوع الوحدة الذي تحدث عنه مرسيا إلياد لا يتناقض مع واقع التعدد والتنوع على مستوى التجارب الدينية بقدر ما يعني وبالأسلوب البنيوي الأجزاء داخل البنية؛ لقد صادفنا العديد من النصوص التي تخدم هذا الطرح المتأصل في المشروع الفكري لمرسيا إلياد لكننا وتجنبا للسطحية في التناول ركزنا على بعض النصوص التي ارتأينا أنها الأقوى من بين نظيراتها، فعلى سبيل المثال لا الحصر يقدم النص الآتي المعنى الذي نريد أن نؤسس له في قراءة مدونات هذا المفكر، والنص متنه الآتي: " إن الشعور بهذه الوحدة للتاريخ الروحي للبشرية هو اكتشاف حديث، ومازال غير متمثل بما فيه الكفاية، وسنتحقق من أهميته بالنسبة لمستقبل نظامنا في الفصل الأخير من الجزء الثالث، وفي هذا الفصل الأخير نناقش الأزمات المثارة من قبل أسياد الانقسامية - منذ ماركس ونيتشه حتى فرويد - والمساهمات المقدمة من قبل الإناسة / الأنثروبولوجيا / وتاريخ الأديان، والفينومينولوجيا، والتأويلية الجديدة، التي لن تحسب الإبداع الديني والوحيد وإنما لها إلهام للعالم الغربي الحديث"[12].

كل ما سبق يؤكد أن تاريخ البشرية مع المقدس هو تاريخ تراكمي ساهم فيه الجميع بالكيفية وبالقدر الذي يضمن لكل المجتمعات الحق في المشاركة في بناء الحضارة البشرية كما الحق في الوجود، هذا ما يفسر حسب ما نعتقد العلاقة القوية والمباشرة مع جزئية التشابه الكبير بين الأساطير الحية، ومنه يمكن لنا الانتقال الآن إلى سؤال آخر يتمم السؤال السابق، هل كان بالإمكان أن يحدث هذا التشابه بين المجتمعات على مستوى الأساطير الحية لو كانت هذه

الأساطير عبارة عن إبداع عقلي خالص لا علاقة له بمرجعية فكرية موضوعية خارجة عن الذات؟.

يمكننا القول أن الإجابة على السؤال السالف الذكر لن تكلفنا الكثير، فلو صاغ كل مجتمع أساطيره بطريقة إبداعية عقلية خالصة لغاب التشابه الحاصل بين الأساطير الكبرى، بل إن ذلك يتناقض مع مفهوم الأسطورة أصلا باعتبار أن الأسطورة لا تمتلك كاتبا بل هي تعبر عن فكر جمعي؛ والمنطقي هو أن مجتمعا بدئيا (أول، قديم) كان قد تناقل متون الدين على شكل ثقافة شفوية شارحة لمضمون الديني كوحي أولاني، وبتلاقح الثقافات والحضارات مرت الأفكار الأساسية والمحورية في هذا الخطاب الديني الذي صيغ في قالب فني لغوي رفيع من مجتمع لآخر وتمكنت من التنقل عبر التاريخ، أي أن تلاقح الثقافات والحضارات هو الذي ساعد تنقل الأفكار الأسطورية عبر الجغرافيا والتاريخ؛ لكن الأهم هو أن الدين سبق الأسطورة وهذه الأخيرة إنما وجدت لشرح متنه مثلها في ذلك مثل أي خطاب ديني يسعى إلى التفكير داخل منظومته الدينية، وهذا ما يجعل القارئ يفهم قول مرسيا إلياد: "إن القصة الصحيحة لأساطير الأصول كانت عملا دينيا ضروريا لدعم النظام للعالم وللمجتمع"[13]، واعتمادا على ذلك أيضا يمكننا فهم قوله: " وكما في أي مكان آخر، فإن أساطير الأصول تبتدئ بالتذكير بالنشكونية*"[14]، وللعلم فإن التذكر هنا يتعلق باسترجاع أو إعادة بناء الصور الدينية باستخدام اللغة والعرف الاجتماعي اللذان تزخر بهما الأساطير.

3- وظيفة الأساطير

يمكننا استنباط الأصول الدينية للأساطير من خلال البحث عن وظيفة الأسطورة، أي أننا سنوسع في هذه الجزئية من المنهج البنيوي ليصبح منهجا بنيويا وظيفيا لكي يلبي مطلبنا؛ وليس المقصود بوظيفة الأساطير ما كانت تقوم به هذه الأخيرة في المجتمعات التي تؤمن بمحتواها وترددها ممزوجة بالطقوس لتسهيل العبور من الزمن العادي إلى الزمن المقدس فحسب، بل المقصود هنا بوظيفة الأساطير ما قامت به الأسطورة في نظر الدارسين، عندئذ يمكن تسمية هذه الوظيفة بالوظيفة الميثولوجية التي بإمكانها مساعدتنا على كشف العلاقة

بين الأسطورة والدين بما يثمن كل ما سبق ذكره حول الأصل الديني ومحاكاة الأسطورة للنصوص الأولى المقدسة وهي النصوص الدينية.

يرى مرسيا إلياد أن للأسطورة وظائف عدة تؤديها، وحتى لا نتحدث إلا من خلال النصوص ارتأينا أن نرتكز في قراءتنا لوجهة نظر مرسيا إلياد على نصوص تخدم ما نصبو إليه؛ يقول مرسيا إلياد: " لابد لنا قبل أن نختم هذا الفصل من إيراد الفقرات الكلاسيكية التي حاول فيها برونلاف مالينوفسكي أن يستخلص طبيعة ووظيفة الأسطورة في المجتمعات البدائية: الأسطورة، منظورا إليها بما فيها من عنصر غني بالحياة، ليست تفسيرا يراد منه تلبية فضول علمي، بل هي حكاية تعيد الحياة إلى حقيقة أصلية وتستجيب لحاجة دينية عميقة...؛ تفسر وتبرز وتقنن المعتقدات، تحامي عن المبادئ الأخلاقية وتفرضها، تضمن فاعلية الاحتفالات الطقسية..."[15]، وبما أن مرسيا إلياد يستعرض في هذا النص أطروحة مالينوفسكي فإننا لم نجزم بأنه يتبنى أطروحة هذا الأخير إلا بعد قراءة النص الآتي- والذي جاء مباشرة بعد النص السالف الذكر-: " إذن، عنصر جوهري في الحضارة الإنسانية، ليست تخريفا لا طائل وراءه، بل حقيقة حية لا ينفك يلجأ إليها الإنسان؛ ليست عرضا لمشاهد مصورة، بل صياغة حقيقية للدين البدائي وللحكمة العملية"[16]، ومنه نستنتج أن مرسيا إلياد ينتقل من مستعرض لأطروحة مالينوفسكي إلى مستنبط يحدد النتيجة التي تبرز موقفه هو والمتمثل في أن الوظيفة الأساسية للأسطورة تتمثل في صياغة حقيقية للدين، وإذا سلمنا بأن الأسطورة تعتبر صياغة للدين فمعنى ذلك أن الدين هو أصل الأساطير وهذه الأخيرة إنما وجدت لتشرح الدين أو لتوثقه باعتبار أن الدين كوحي له قيمة كبيرة تجسدت في قداسته عند الإنسان المعني الأول والأخير بذلك الوحي.

خلاصة:

سنرتكز على جزئيتين لصياغة متن خلاصة هذه الدراسة، الأولى هي فكرة لأرنست كاسيرر يمكن استخلاصها من النص الآتي: " وبالتالي فإن أي نظرية معرفية لابد من أن تولي الخيال المكون للأساطير من العناية بقدر ما تولي المنطق والمفاهيم المعرفية النسقية، فالأنماط الفكرية لا تتفاضل بل تختلف فحسب، وهكذا لم يعد من الممكن تصنيف الشعوب إلى شعوب "منطقية" وشعوب "ما قبل منطقية"، أي لم تحظى بعد بشرف الوصول إلى مرتبة التفكير المنطقي"[17]، والمغزى من ذلك أن الثقافة الأوربية المنطقية النسقية تمتلك جذورا تمتد إلى الثقافات الشرقية القديمة اللامنطقية اللانسقية التي سيطرت عليها اللاعقلانية في شكلها الأسطوري والديني، ويمكن أن نعتبر ذلك خلاصة تعبر عن صفوة القول الذي قدمه مرسيا إلياد في مشروعه الفكري عن الأسطورة، ويتأكد ذلك لدى المختصين في مجال الأسطورة والفكر عندما نقرأ عن أرنست كاسيرر أنه يعتبر من البنيويين الأوائل الذين أدركوا قيمة اللغة ورمزية الدلالة في فهم العديد من أشكال الفكر البشري وعلى رأسها الأساطير.

أما الجزئية الثانية فتتمثل في فكرة لرودولف أوتو ويمكن استخلاصها من النص الآتي: "يترتب على ما تقدم قوله أن "القدسي" فرزة* مركبة ومعقدة بكل ما للفظ من معنى، أما عناصره المركبة له فهي عناصره العقلانية، وغير العقلانية، ولكنه، في هذه وتلك، فرزة أولية بشكل محض"[18] ومعنى ذلك أن التدين فطرة في الإنسان أي أمر أولي خالص لم يرتقي إليه الإنسان بل بفضله ارتقت الإنسانية إلى كل أشكال الوعي التي عرفها تاريخ البشرية التي حركها الإنسان بطريقة علمية أو فلسفية أو حتى فنية؛ والدليل على أن الدين هو أصل الأسطورة باعتبارها فنا أو باعتبارها تاريخا أو حتى باعتبارها تعبيرا عن المجتمع وأعماق النفس هو النص التالي: " فإنه يجب التسليم، أولا، بأنه عندما يشرع التطور الديني بانطلاقته، تطالعنا ظواهر غريبة ومتنوعة، تتقدم على الدين بحصر المعنى، ولكنها تترك أثرها في مجرى سيره فيما بعد؛ هذا هو شأن مدلول كل من المفاهيم الآتية: "الطاهر" و"النجس"، الإيمان بالموتى، وتكريمهم، والإيمان "بالأنفس" وتكريمها، والسحر، والفأل الحسن، والأسطورة، وإكرام الأشياء الطبيعية..."[19] هذا النص سيضع حدا للجدل حول تراتبية الأسطورة والدين، فالدين أولي فطري

والأسطورة ليست سوى تعبيرا عن تطور حادث في النشاط الديني أي أنها خطاب ديني يمتلك البعد اللغوي والفني كما يقبل إسقاطات عديدة في مجالات مختلفة كالتاريخ والمجتمع والنفس...إلخ؛ وتعبر هذه الجزئية استقلابا عن إجمال ما ذهب إليه مرسيا إلياد، ويبرر كل ما سبق من هذه الخلاصة اختيارنا لأرنست كاسيرر ورودولف أوتو كأنموذجين فكريين كان لابد من التطرق إليهما كي نظفر بفهم المشروع الفكري لمرسيا إلياد.

ننهي هذه الدراسة بملاحظات من شأنها أن تقدم لنا مساحة إضافية لبحثنا، هذه الملاحظات تتميز أيضا بطابعها الاستنتاجي باعتبار أنها تعبر عن تحصيل حاصل في المشروع الفكري لمرسيا إلياد، إذ يتجلى لكل من قرأ لهذا المفكر أنه يستخدم مفهوم الأسطورة وكأنها تعبير عن الدين حتى أضحت الحدود الفاصلة بينها وبين الدين غير مرئية؛ ضف إلى ذلك أن موضوع الأسطورة والدين عند مرسيا إلياد ما هو إلا مدخل لموضوع حوار الحضارات الذي يشترط عدم المفاضلة بين الحضارات والاكتفاء بالتمييز بينها؛ يقدم مرسيا إلياد أيضا تصورا للأسطوري والديني يمكن الدارس من الربط والفصل بينهما دون أدنى مشكلة، فالربط يكمن في فكرة القدسي كنقطة تقاطع تجمعهما والفصل يتم من خلال التمييز بين الألوهي والبشري أو الأصلي والمقلد.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

- مرسيا إلياد، **مظاهر الأسطورة**، تر: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط1 ، 1991.
- مرسيا إلياد، **البحث عن التاريخ والمعنى في الدين**، تر: سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2007.
- مرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، الجزء الأول، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط1، 1987/1986، دمشق.
- مرسيا إلياد، **الأساطير والأحلام والأسرار**، تر: حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط 1، 2004.

- أرنست كاسيرر، **اللغة والأسطورة**، تر: سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط1، 2009.
- رودولف أوتو، **فكرة القدسي**، تر: جورج خوام البولسي، دار المعارف الحكمية، بيروت، ط1، 2010.

---

* - أستاذ محاضر بجامعة مصطفى اسطنبولي بمعسكر - الجزائر -.

[1] - مرسيا إلياد، **مظاهر الأسطورة**، تر: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، ط1 ، 1991، ص 21، 22.

* - حسب السياق العام للنص نظن أن المقصود هو الماهية وليس الجوهر، فالأمر يتعلق بخلل في الترجمة، فكلمة (essence) تقابل كلا من الجوهر والماهية، لكننا نرجح عند مرسيا إلياد أن يكون المقصود هو الماهية لكي يكتمل المشهد البنيوي في نظريته عن علاقة الأسطوري بالديني، والمقصود بأكتمال المشهد البنيوي هو رفضه للطرح الوجودي الذي يمنح أسبقية للوجود على الماهية.

[2] - المصدر السابق، ص89.

* - قمنا باستعارة نفس التعبير الذي ورد عند مرسيا إلياد في كتاب "البحث عن التاريخ والمعنى في الدين"، وقد ورد هذا العنوان في الصفحة 109 لمعالجة موضوع "بحثا عن أصول الدين".

** - المتون الهرمسية (Corpus Hermeticum) هي مجموعة كتب تنسب لهرمس الحكيم صاحب مثلث العظمة، والحقيقة أن أول ترجمة للمتون الهرمسية قام بها مرسيليو فيتشينو (1433- 1499) بطلب من زميله كوزيمو دو مديتشي (1389- 1464) صاحب المخطوط الأصلي وقد كانت الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية.

[3] - مرسيا إلياد، **البحث عن التاريخ والمعنى في الدين**، تر: سعود المولى، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط 1، 2007، ص 112.

[4] - المصدر السابق، ص 111.

* - الأناسي: مفهوم يستخدم للدلالة على البشر الذين عاشوا ما بين الألف الخمس مائة والألف المائة قبل التاريخ ولا وجود لآثار تشرح نمط عيشهم غير بعض الاستنتاجات المبنية على مظاهر الحياة اللاحقة التي صيغت في أغلبها بطريقة استردادية تصورية.

[5] - مرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، الجزء الأول، تر: عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط1، 1987/1986، دمشق، ص 28.

[6] - المصدر نفسه، ص 79.

[7] - المصدر السابق، ص 79.

[8] - مرسيا إلياد، **البحث عن التاريخ والمعنى في الدين**، ص 114.

[9] - المصدر السابق، ص 165.

* - الدياك هم السكان الأصليون لجزيرة بورينيو بين إندونيسيا وماليزيا ولازالوا يحافظون على عاداتهم وتقاليدهم بما فيها الدينية منذ أكثر من 3000 سنة.

[10] - المصدر نفسه، ص 171.

* - **مسكونية**: مصطلح يشير إلى اللفظ اللاتيني (ecumenism) والذي يعني الدعوة إلى توحيد الكنائس كمبادرة تهدف إلى مواجهة الطائفية والتشرذم، وقد أشتق لفظ مسكونية من اللفظ اليوناني (oikoumene) والذي يعني العالم المسكون بأكمله

إشارة إلى الإمبراطورية الرومانية؛ وقد ورد في معجم المعاني الجامع أن لفظ مسكوني يعني عالمي دلالة على التعاون والتفاهم والاتحاد بين مختلف الكنائس ومنها الحركة المسكونية (أنظر المزيد من خلال الرابط الآتي:WWW.almaany.com/dict:ar).

[11]- مرسيا إلياد، **الأساطير والأحلام والأسرار**، ترـ: **حسيب كاسوحة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط 1، 2004**، ص 93.

[12]- مرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، الجزء الأول، ص 12، 13.

[13]- مرسيا إلياد، **تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية**، الجزء الثالث، ص 390.

[*]- **النشكونية:** مصطلح يشير به مرسيا إلياد إلى نشوء الكون أو ما يعرف في التاريخ بالمرحلة الكوسموغونية (cosmogonie).

[14]- المصدر نفسه، ص 390.

[15]- مرسيا إلياد، **مظاهر الأسطورة**، ص 22.

[16]- المصدر نفسه، ص 23.

[17]- سعيد الغانمي، من مقدمة المترجم لكتاب **الأسطورة واللغة** لأرنست كاسيرر، ص، ص 12،11.

[*]- الفرزة: النصيب من الشيء إذا فرز.

[18]- رودولف أوتو، **فكرة القدسي**، ص 146.

[19]- المرجع السابق، ص147.